بدأ كل شيء فجأة، كما لو أنّ الزمن قرّر أن يصفعني بيده الخفيّة: اتصال هاتفي من أحد أصدقائي القدامى. بدا لي الاتصال في حينه غريبًا، بل شبه غير متوقَّع؛ فأنا منذ سنوات أعيش في عزلة شبه طوعية، أُسمّيها - على سبيل التجميل - «الهجران الجميل للأصدقاء»، وقد صار أغلبهم، فيما أظن، ضجرين من مرافقة بؤسي وفقري الذي التصق بي التصاق الظل بصاحبه.

جاءني صوته عبر الهاتف بعد انقطاع طويل. ظننته يطمئن عليَّ أو يسأل عن أحوالي بعد طول غياب، لكني سرعان ما اكتشفت أن المكالمة، على عادته، ليست إلا لأجل «مصلحة» يريد قضاءها. لم يكن ذلك سلوكًا غريبًا في طبعه؛ لقد خبرتُه أكثر من عشر سنوات، وعرفتُ أنّه، على ما فيه من جوانب رائعة ونُبل في بعض المواقف، يبقى مثل أي إنسان له منطقة ظلٍّ داكنة في شخصيته. كان صديقًا حميمًا قبل أن تفرّق بيننا الأيام، وتترك في علاقتنا تلك الجفوة الثقيلة التي تصنعها الظروف القاسية التي يرزح تحتها شباب فلسطين المحاصرون.

شيئًا فشيئًا تحوّلت صداقتنا إلى علاقة باهتة، مجرَّدة من الحماسة القديمة والحميمية التي كانت تميّزنا. الأيامُ باعدت بيننا حقًّا، حتى وإن كنّا نسكن البيوت ذاتها، ونرتاد الأماكن نفسها التي كانت تجمعنا فيما مضى. اليوم، كل شيء تغيّر، لم نعد نلتقي صدفة أو عمدًا، ولم نعد نحرص على الاتصال، وكأنّ خيوط المودّة صارت خيوط دخان تتبدّد في الهواء.

والمفارقة أنّي، في ذلك الوقت تحديدًا، كنتُ في أمسِّ الحاجة إلى اتصاله بي، لا لشيء سوى لأنّي كنتُ أحتاج إلى «مصلحة» هذه المرة لصالحي أنا. فمنذ سنوات فقدت عملي، وصرتُ رجلًا بلا وظيفة تقيه السؤال أو تُطعمه رغيف خبز، ولو كان من شعير.

علـى مـدى أربـع سـنوات متتاليـة عشـتُ بصـفة «رجـل بـلا قيمـة» فـي نظـر المجتمـع. البطالـةُ كانـت مثـل مطرقـة تهـوي علـى ذاتـي، تحطّمهـا قطعـة قطعـة، وتشـكّل صـورتي أمـام الآخـرين علـى أنّـي «عـديم الفائـدة»؛ حتـى إنّ أحـد أصـدقائي كـان يقـول لـي، بـلا أدنـى مواربـة أو إحسـاس بالأسـى:

ــــأنت إنسان ليس من ورائك خير!

كـان يلقيهـا علـى مسـمعي هكـذا، كأنّهـا حقيقـة بـاردة، أو قاعـدة حديديـة لا تقبـل التعـديل. لـم يكـن ذلـك يزعجنـي منـه بقـدر مـا كـان يُثيـر إعجـابي بصـرامته وصـراحته؛ لكنّـي فـي داخلـي كنـتُ أصـرخ بالسـؤال نفسـه الـذي يتـردّد فـي رأسي كل حين:

«أي لعنة هذه التي حلّت علينا حتى صرنا إلى ما نحن فيه؟!»

سـؤال ظـلّ يتـردّد فـي خلـدي بـلا إجابـة حاسـمة، فيـدفعني إلـى طـرح أسـئلة أخـرى علّنـي أمسـك بخـيط السـبب. كنـت أقـول لنفسـي مـثلًا: هـل تـراه بسـبب سياسـة العـدوّ الصـهيوني وحصـاره المميـت لقطـاع غـزة مـا زلتُ أعاني؟

أم بسـبب صـراع تلـك التنظيمـات المتنـاحرة علـى نهـش الجسـد الجـريح الـذي ندعوه وطنًا؟

أم أنّ الأمـر يعـود إلـى سبب آخـر أشـدّ خصوصـية، حـين فُصـلتُ مـن عملـي بعـد رفضي الالتحاق بتنظيم سياسي كان يموّل المؤسسة الثقافية التي أعمل بها؟

أتـذكّر تلـك الأيـام بوضـوح؛ ثـلاث سـنوات مـن الكـدّ والشـقاء فـي الحقـل الثقـافي والفنـي انتهـت بـي إلـى عاطـل علـى الأرصـفة، فـي بلـد أصـبحت أسـمى أمـاني المـواطن فيـه أن يجـد عمـلًا، أيّ عمـل، ولـو فـي أقصـى الهـامش. كنـتُ يومهـا أشعر أن كل باب يُغلق في وجهي يُنقَش في صدري مثل ندبة.

***

لقد أصبحتُ، بفضل تلك البطالة الثقيلة التي انقضّت عليّ كقدرٍ مباغت، رمزًا حقيقيًا للمأساة، وأحيانًا - في عيون بعض الأصدقاء - مادةً للسخرية الخفيّة. كانوا يتعاملون معي وكأنني كائن عجيب، يتساءلون بدهشة: كيف ما زال هذا الرجل قائمًا على قدميه، لم ينكسر بعد؟! كيف لم يزُجّ بنفسه في دروب الانحراف كما فعل غيره؟!

كنتُ، على الرغم من كل ما أعانيه، ثابتًا على مبادئي، أرفض أن أساوم أو أغيّر جلدي تحت ذريعة «أريد أن أعيش». كلمة «أعيش» هذه كانت تحمل لدى كثيرين معنى مراوغًا: أن تبيع نفسك بأرخص ثمن، أن تكذب كما يكذب الجميع، أن تسرق لأن الكل يسرق. فما دام الخيانة قاعدة عامّة، فما معنى الأمانة؟ وما دامت الأكاذيب صارت لغة متداولة، فما ضرورة الصدق؟!

كثيرون ممن عرفتهم سمحوا لهذه المفاهيم السامة أن تتسرّب إلى رؤوسهم، حتى صاروا مهيّئين لأن يتحوّلوا إلى مشاريع طواغيت أو مجرمين صغار. كنتُ أراهم في خيالي مثل ديدان صغيرة تزحف ببطء، تنتظر أن يكتمل نموّها لتتحوّل إلى مخلوقات طفيلية أشد قذارة وبشاعة، لا تختلف في جوهرها عن أولئك الذين كانوا يلعنونهم في الجلسات ويُدينون فسادهم.

حين فقدتُ عملي، لم أستسلم تمامًا، بل حاولت أن أجد مخرجًا جديدًا. اتجهتُ إلى عالم صناعة المحتوى المرئي، أُجرّب نفسي في إنتاج البرامج التفاعلية عبر منصّات التواصل الاجتماعي. كنتُ أظن أن ذلك المجال قد يفتح لي بابًا يقيمني على قدميّ من جديد. أتقنتُ الأساسيات سريعًا، وأطلقت أكثر من برنامج قصير، وصنعت عدة مقاطع فيديو نشرتها بين الناس.

لكن الطريق لم يكن مفروشًا بالورود. الترويج كان ينقصني دائمًا، وما فائدة المحتوى بلا جمهور؟! كنتُ أبذل ساعاتٍ طويلة في التصوير والإعداد والمونتاج، ثم أجد أعمالي تتبخّر في الهواء وكأنها لم تكن. والإنهاك كان ينهش جسدي، فيما معدتي الخاوية تذكّرني دائمًا بأولوية أكثر إلحاحًا من أي إبداع: أن أشتري رغيف خبز يسدّ جوعي، لا أن أزرع بذور قمح قد لا أرى حصادها!

بعد جهد مضنٍ، وبعد أن أنجزت عشر حلقات كاملة من برنامج أطلقت عليه اسم «مذكّرات لاجئ»، وجدت نفسي مضطرًا إلى التوقّف. كان ذلك البرنامج أشبه بمحاولة أخيرة لأُثبت أنني ما زلت أمتلك صوتًا. لكن توقّفي عنه مثّل لي نهاية مرحلة، كأنني دخلت - تقنيًا ونفسيًا - في حالة «نفاس» طويلة، تسبق عادةً ولادة جديدة، لكنّها عندي طالت أكثر من اللازم.

مرّ أكثر من شهرين وأنا عالق في هذا الفراغ. لا عمل، لا مصدر رزق، ولا أفق يُطل برأسه من بعيد. وفي خضم هذا السكون الثقيل، جاءني اتصال ذلك الرفيق القديم، ليخبرني أنه تَسلَّم مؤخرًا منصبًا إداريًا جديدًا داخل مؤسسة طالما أحبّ العمل متطوّعًا فيها: «اللجنة الشعبية للاجئين – فرع مخيم النصيرات.»

كانت تلك اللجنة واحدة من اللجان الوطنية التي أُنشئت للدفاع عن حقوق اللاجئين الفلسطينيين، وتقديم بعض الخدمات الأساسية لهم.

هيئات متواضعة، لكنّها تحمل ثقل التاريخ والرمزية، وتُذكّر الناس دومًا أن قضيتهم لم تُمحَ بعد. كانت هذه اللجان تتوزع وفق التواجد الديموغرافي لعشرات آلاف اللاجئين في الأرض المحتلة؛ بعضها في مخيمات غزة المكتظّة، وبعضها في الضفة الغربية، وأخرى في الشتات البعيد. كانت بمثابة خيوط ضعيفة، لكنها ما زالت تربط اللاجئ بفكرة الوطن، وتُذكّره أنّه لم يخرج من التاريخ بعد، مهما حاول العالم تجاهله.

***

كان صديقي هذا من الشباب المعروفين بنشاطهم السياسي، ولهذا ـ كما فهمت لاحقًا ـ حصل على ذلك المقعد داخل اللجنة الشعبية بصفقة سياسية معينة. الصفقة مكّنته من أن يُرشَّح ليكون مسؤول «لجنة الأنشطة والفعاليات» في الكيان، وهي مسؤولية حاول أن يشرح لي أنها ستتيح له تنفيذ برامج «فريدة» و«مختلفة» كما كان يُحب أن يقول.

في نهاية المطاف دعاني إلى اجتماع، صوّره لي باعتباره خطوة نحو إنجازات ملموسة: إنشاء فريق شبابي مميّز يضم مجموعة كبيرة من الشباب المبدعين القادرين على ابتكار أفكار نيّرة والمساهمة في تنفيذ برامج هادفة. كنتُ أستمع إليه وأشعر بأن الدم يعود إلى عروقي. هذه الأجواء كنتُ دائمًا أزدهر فيها، أو قل أتنفّس فيها. العمل ضمن فرق شبابية، خصوصًا في الأنشطة التطوعية الهادفة، كان يغذّي داخلي شعورًا بأنني ما زلتُ أستطيع العطاء، وأن الطاقة الهائلة التي تموج في داخلي لن تتحوّل إلى صدأ أو إلى قنبلة موقوتة إذا لم أستثمرها في شيء مفيد.

وافقتُ على حضور الاجتماع متفائلًا. تخيّلت قاعة واسعة مكتظة بالشباب والفتيات، حماس يملأ المكان، طاولات تعجّ بالأوراق والأفكار، وعصف ذهني يشتعل. لكن حين دخلتُ المكان فوجئتُ بالحقيقة: الاجتماع الذي دعيت إليه لم يكن الأول، وعدد الحاضرين لم يكن ذلك الذي رسمته في خيالي. أربعة أشخاص فقط، من بينهم فتاتان.

كانت صدمة حقيقية. توقعتُ أن أكون ضيفًا على لقاء تأسيسي كبير، لا أن أجد نفسي بين أربعة وجوه نصفها لا أعرفه. أنا بالأصل كنت أقطن في مخيم مجاور، ولا أتبع إداريًا لهذه اللجنة بل للجنة أخرى، لكن حبّي للعمل الوطني وتجردي من هذه التقسيمات الضيقة جعلني أستعدّ للعطاء في أي مكان أوجد فيه. كنتُ متحمّسًا لمقابلة وجوه جديدة، خصوصًا الشابة منها، لأقول لنفسي: «لقد حان للعنقاء أن تنهض من رمادها». لكن العنقاء بدت هذه المرة عاجزة عن النهوض. الواقع كان مخيّبًا للآمال إلى حد بعيد.

مع ذلك تماسكتُ. جلستُ بينهم وقررتُ أن أشارك بما أستطيع. كنتُ أُعدّ في ذهني نقاطًا عن الإعلام الرقمي وطرق استغلال مواقع التواصل الاجتماعي لإيصال الرسائل وجلب الدعم أو الاستثمارات الممكنة. ألقيتُ طرحي بهدوء، بثقة متعبة. كنتُ أظن أن الأفكار التي أقدّمها ستشعل حماسهم أو على الأقل تثير فضولهم.

كان ردّ الفعل غريبًا. الفتاتان وصديقي بدوا معجبين، أو هكذا تظاهرت وجوههم. لكنني سرعان ما شعرت أنّهم لم يفهموا تمامًا ما أقول. الإيماءات التي كانت تومض على وجوههم تشبه تلك الابتسامات التي نوزّعها مجاملة على أشياء لا نفهمها. كانوا يصفقون كمن تعوّد التصفيق في المكان والزمان نفسه، دون أن يدرك معنى ما يسمع.

أصغيت إلى تعليق إحدى الفتيات، ثم إلى صديقي وهو يعقّب بكلام بدا لي هراءً خالصًا، بعيدًا عمّا قصدته.

كان يتحدث وكأنه يريد أن يُثبت لي بعناد عجيب أنه لم يفهم شيئًا من طرحي. لحظتها اجتاحني إحساس بالأسى، ليس عليهم فقط بل عليّ أنا أيضًا.

سيطرتُ على مشاعري بصعوبة. اكتفيت برسم ابتسامة بائسة على شفتي، أُخفي بها خيبة أمل تتضاعف في صدري. وفي داخلي كنتُ أنوي بجدية ألا أعود إلى هذا المكان. نهضتُ من مقعدي ببطء، كمن يجرّ وراءه ظلّ حلمٍ آخر تحطّم، وقلت لنفسي وأنا أخرج: «لن أعود... على الأقل ليس بهذه الصورة.»

***